المحور: رجال التصوف والطرق الصوفية.

المحاضرة– سلوك بعض المتصوفين:

شهد المجتمع الجزائري أوائل العهد العثماني حالة من الانحلال الفكري وانتشار العادات السيئة التي ألصقت بالدين، في هذا الوقت الذي اشتدت فيه القطيعة بين العالم الإسلامي الجامد والعالم الأوروبي المتحرك، ازدهر التصوف المزعوم والدروشة والأمية والتخلف العقلي في المجتمعات الإسلامية، وكثر فيه أدعياء العلم من الفئة التي كانت تسمي نفسها حامية الشريعة، وعشعش الفكر الخرافي حتى كاد المجتمع كله يصبح زاوية صوفية فيها الحضرة والرقص العصبي والإيمان بالغيبيات والروحانيات[1].

إن أبرز مميزات الفترة العثمانية هي كثرة الطرق الصوفية التي اعتمدها بعض المتصوفة المنحرفين في نشر الخرافة والدجل، وكان همهم ادعاء الكرامات، وجمع المال والهدايا من الفقراء، واستغلال العامة ماليا، وابتعادهم تماما عن التصوف الحقيقي القائم على العلم والعمل به، والذي يستمد أصوله من الكتاب والسنة، ف وظاهرة التصوف المنحرف كان لها الأثر الكبير في انهيار المجتمع، وتسببت في ضياع العلم وغياب العقل، الشيء الذي أدى إلى ظهور ثورة فكرية قادها بعض العلماء الذين انتصروا للتصوف الحقيقي، وسخروا جهودهم في محاربة الدجل والشعوذة التي مارسها كثير من الدجاجلة باسم التصوف[2].

في هذا الجو ظهر شيخ الإسلام الصوفي العالم العامل عبد الرحمان الأخضري وكان من أبرز من أنجبت الجزائر خلال القرن العاشر الهجري(16م)، ولم يكن هذا

---

[1] هلايلي، **مرجع سابق**، ص.229.

[2] نفسه، ص.246.

العالم الصوفي يؤلف الأذكار والأوراد وغيرها، بل هاجم البدع ومن سماهم علماء السوء، ودعا إلى العمل بالكتاب والسنة، وقد نظم الأخضري القدسية وهي نظم في آداب السلوك، وتسمى المنظومة القدسية في طريق السنة، نظمها سنة 944هـ، وتحتوي على 346 بيتا، حيث استعرض فيها المسائل المتعلقة بالتصوف من مجاهدات وكيفية تطهير النفس والروح، مبينا أوضاع المجتمع بإتباعه للبدع والخرافات، منتقدا متصوفة زمانه، والمنظومة الأخضرية تبدأ كالتالي:

بسم الله الرحمـــــان الرحيم اعلم بأن الجوهر الإنساني

يقول راجي رحمة المـــقتدر وهو الذي يدعونه الروحاني

فهذه الجواهر النفيســـــــة وباطن العلائق النفســـية

بالأصل في الدائرة القدســـية من شهرة رياسة ودعـــوى

دائرة التطهير والكمـــــــال ونزعة الشيطان وهي البلوى

رقي مقام الكشف والمشـــاهدة وطهر القلب من الأذغـــان

وفارق العادات في المـــــثال ولأخت الأعراف بروعـــائها

مطوية في النفس طي الحب في وسريان الماء في أرجائها[1]

إن قراءة متأنية لأبيات القدسية تجعلنا نجزم بأن الأخضري كان من المحاربين للبدع وأصناف الشرك، ومما جاء في المنظومة ما يلي:

إذا رأيت رجـــــــلا يطير والشرع نور الحق منه قد بدا

أو فوق ماء البحر قد يسير وانفجرت منه ينابيـــع الهدى

---

[1] هلايلي، **مرجع سابق**، ص ص.248-249.

ولم يكن متبعا للشـــــرع وقال بعض أوليـــــاء الله

فإنه مستدرج وبدعـــــي خالق السالكـــين بطريق الله

واعلم بأن الخالق الربـــاني من ادعى مراتب الجمال

فارفضه إنما الفتى دجـــال ولم يتخلى والزور والهواء

ليس له إنما التحقيق والكمال جاؤوا بمسط وضلال وقلا

ففر منه إنه شيطـــــان أو يلج الجمل في سم الخياط

مخادع مليس خـــــوان هذا زمان كثرت فيه الـبدع

تزخرفت في جملة الوطــان وهاجت الطائفة الدجاجلة[1]

وفي موضع آخر يشير إلى الضلال والزيغ الذي أبداه بعض المتصوفة المخادعين، الذين اتبعوا مسلك الشيطان وهدموا قواعد الشرع الحنيف، ومما جاء في المنظومة:

واتبعوا مسالك الشيطان وجعلوا ملء البطون أصلهم

وهدموا قواعد الإسلام بنوا عليه أمرهم وشبلـــهم

وعكسوا حقائق الأمور واشتغلوا بطاعـــة اللعين

ونصبوا حبائل الفجور وألعوا بالإنك والتـــــبليس

وأولعوا بشهوات النفس تأسيا بشيخـــــــهم إبليس

آه على طريقة قد ذهبت آه على طريق حزب الله

---

[1] هلايلي، **مرجع سابق**، ص ص.249-250.

وهدمت أصولها وقبلت طريقة أفسدها الفجار

وهاج إفك المدعين فيها فكثروا وانتشروا وثاروا[1]

لقد انتقد الأخضري الانحراف الصوفي، و وصف المنحرفين والأدعياء بالمزيفين الذين يستعملون جميع الوسائل لاستغلال العامة، ونشر الجهل والخرافة، فانتقدهم بشدة ورمى بعضهم بالزندقة واتخاذ التصوف وسيلة إلى الدنيا، فالتصوف في اعتقاد الأخضري ليس التوسط بالشيخ، واتخاذ الحضرة والجدب، ولكنه بإتباع السنة وإجماع الأمة، فالرجل الصالح هو المواظب على الطاعات[2].

أما الشيخ عبد الكريم الفكون، فقد فضح في كتابه منشور الهداية بعض منتسبي التصوف، إذ تناول في الفصل الثالث منه مجموعة من التراجم لمدعي الولاية والدجاجلة والمبتدعة الضالين والمضلين، ومنهم سيدي قاسم بن أم هانيء وأحمد بوعكاز، وسيدي الجليس، وعبدالمالك السناسي، والعابد الشابي، وأضاف إليهم محمد الساسي البوني رغم علمه وتقواه[3].

خصص الفكون في كتابه حيزا كبيرا لأحد أدعياء الولاية، وهو قاسم بن أم هانئ إذ عرّفه قائلا: ‹‹ فاعلم أن هذا الرجل كان في ابتداء أمره ذا سمت حسن بأن جانب جبايا زواياهم، إذ لأسلافه رعايا يؤدون لهم الأعشار والزكوات، فكان ذلك الرجل مباعدا لأمورهم مشغولا عنهم بجعله لنفسه خلوة في أماكن يعدها ويواظب على الصلوات والصوم، ويري تناول أكله لطعام الشعير ويتقشف في لبسه بلبس الغرارة والمرقعة حتى أمال القلوب إليه وأصغى الآذان وأشارت بالألف إليه الأصابع...فبقي على ذلك مدة حتى فشا خبره وانتشر أمره، واتخذه الناس الجهلة مقطعا للحقوق

---

[1] هلايلي، **مرجع سابق**، ص ص.250-251.

[2] نفسه، ص.252.

[3] صحراوي، **مرجع سابق**، ص.214.

وطريقا لبلوغ مرادهم، فأظهر إذ ذاك البدعة وأشهر الخدعة، وجعل تلامذة سماهم الفقراء، على طريق أهل البدع واتخذوا الحضرة... يجتمعون لذكر المولى ﷻ، فيغيرون اسمه ويشطحون ويرقصون وربما يتضاربون، لا يفرقون بين محرم ومكروه، ويعتقدون أن ما هم عليه هو الحق الواضح... ››[1].

تأثر الفكون بثورة الأخضري على الدجالين وأدعياء التصوف في قصيدته القدسية، حيث استدل ببعض أبياتها في عدة مواضع في منشوره، حيث يقول: ولله درّ أبي زيد الشيخ عبد الرحمان الأخضري، حيث نظم ما قاله السادة الصوفية في هذه الطائفة، قال رحمه الله تعالى:

وقال بعض السادة الصوفية مقالـــــة جليلة صفـيه

إذا رأيت رجـــلا يطيـــر أو فوق ماء البحر يطير

ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مســـتدرج وبدعي[2]

وفي موضع آخر يقول:

وقال بعض أوليـاء الله السالكين بصـــــرط الله

من ادعى مراتب الجمال ولم يقم بأدب الجـــــلال

فارفضه إنما الفتى دجال ليس له التحقيق والكـمال

ففر منه إنه شيطـــــان مخـــــادع ملبس خوان[3]

---

[1] الفكون، **منشور الهداية**، ص ص.118-119.

[2] نفسه، ص.122.

[3] نفسه، ص ص.139-140.

ونلاحظ من خلال هذا النقد لمدعي الولاية جرأة شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، الذي لم يتوان عن وصفهم بالدجاجلة والمبتدعة، وأن هذا الانتقاد الحاد والثاقب كان في عهد الباي مراد (1622-1647م)، ولم يستثن في انتقاداته كبار الموظفين العثمانيين دون أن يتعرض لعقاب أو مراقبة، ولا شك أن الفكون مأخوذ بشرف عائلته[1].

ولا شك أنه ليس كل المرابطين كانوا على هذه الشاكلة، فبعضهم كانوا متصوفين حقيقيين، لا همّ لهم في عقائد الناس فيهم ولا في مالهم، وإنما كانوا متفرغين إلى العبادة والعلم بقلب صاف وعين باصرة، وبعضهم لم يتخذ أثناء حياته زاوية ولم يعلن شيخوخة ولا طريقة، وإنما أتباعه هم الذين بالغوا في ذلك ونسبوا إليه ما لم يقل أو يفعل وشيدوا له القبة أو الزاوية واعتقدوا فيه المعتقدات غير الصحيحة التي كان لا يقرها لو كان حيا، ولا شك أن بعضهم قد اتخذ تلك الأساليب وسائل كما لاحظ الفكون، للوصول إلى أغراض دنيوية معينة زالت بزوال أصحابها، ولم يبق من شهرتهم وأفعالهم سوى بعض القباب أو المساجد أو الأساطير والذكريات لدى الناس، فكثير من عبارات ‹‹سيدي فلان›› التي نجدها اليوم لا تاريخ لأصحابها[2].

ولعل من الأمور التي كان الفقهاء ينكرونها على المتصوفة والمرابطين، استعمالهم الآلات الموسيقية وأكل الحشيشة وتناولهم المنبهات كوسيلة من وسائل الانتشاء، والظاهر أن الحاجة إلى الموسيقى عند أهل التصوف نبعت من استعمال الأذكار وتنغيم الأوراد في جماعة عند الحضرة وحلقات الذكر، فالشيخ محمد ساسي كان يستعمل في حضرته الإنشاد والأشعار والموسيقى في جماعة بالإضافة إلى التصفيق والغناء والرقص، كما أن الشيخ بلغيث كان يستعمل الآلات الموسيقية بيده، وربما

---

[1] صحراوي، **مرجع سابق**، ص.221.

[2] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص490.

اتخذت بعض الطرق الصوفية مداحين يمدحونها بالأشعار الملحونة ويشيعون أمرها الناس والغناء بذلك في محلات عامة كالمقاهي ونحوها[1].

[1] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.490-491.